﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠﴾ [الأنعام: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين علمِ الله مفاتِحَ الغيب، وكونِه إليه الرُّجعَى والمصيرُ

لَمّا قصَرَ بيانُ اللهِ تعالى في الآيةِ السّابقةِ علْمَ مفاتحِ الغَيبِ على اللهِ تعالى وحدَه جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لتُعرِّفَ العبادَ؛ بأنّه تعالى هو لا غيرُه الَّذي يَقبِضُ نُفوسَهم في اللَّيلِ في مَنامِهم، ويعلمُ ما اكتسبوُه منَ السّيّئاتِ في نهارِهم، ثمَّ يُحييهِم باليَقَظةِ من نَومِهم، حتَّى يَقضيَ آجالَهمُ الَّتي قدَّرَها لهم، ثمَّ يكونُ إليه الرّجوعُ، وينتهي إليه المصيرُ، ثمّ يُنبِّئُهم بعدَ بعْثِهم منَ الموتِ بما عمِلوا في دُنياهم، من خيرٍ مأثورٍ، أو شرٍّ مذكورٍ، وصفْوةُ القولِ: أنّه لمّا بيّن تعالى كمالَ علْمِه بالآية الأولى بيّن كمالَ قُدرتِه بهذه الآيةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: تَوْفيةُ الشَّيءِ: بذلُهُ وافيًا، واستيفاؤُه: تناولُه وافيًا، قالَ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ [آل عمران: 25]، وقد عبَّرَ بيانُ اللهِ عنِ الموتِ والنَّوم بالتَّوَفّي، فمِنَ الأوَّل قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزُّمر: 42]، ومنَ الثّاني قولُه تعالى في الآية الّتي معنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: 60][1]، وخلاصةُ ذلك أنّ: "الرّوحُ هو الّذي به الحياةُ، والنّفْسُ هي الّتي بها العقلُ، فإذا نامَ النّائمُ قبضَ الله نفسَه، ولم يقْبضْ روحَه، ولا يقبضُ الرّوحَ إلّا

(1) الرّاغب، المفردات: (وفى).

عندَ الموت"[1]، وأصلُ التّوفّي "استيفاءُ العددِ؛ أي: يَستوفي عددَ أيّامه، وأنفاسَه، وأرزاقَه، ونحوَ ذلك"[2].

2) ﴿جَرَحۡتُم﴾: جُرْحٌ: الجيمُ والرّاءُ والحاءُ أَصلان: أحدُهما: الكَسْبُ، والثّاني: شَقُّ الجِلْدِ، والأَوَّلُ هو المرادُ في سياقِ الآيةِ الكريمة، من قولِهم: اجْترحَ: إذا عَمِل وكَسَبَ، ومنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: 21]، وإنَّما سُمّيَ ذلكَ اجْتراحًا؛ لأنَّه عَمَلٌ بالجوارحِ؛ وهي الأعضاءُ الكواسِبُ[3]، قال الشّاعرُ:

وكُلُّ فَتًى بِما عَمِلَتْ يَداهُ *** وما اجْتَرَحَتْ عَوامِلُهُ رَهينُ[4]

وقولُهم: (اجْترحَ الذَّنبَ) "أكثرُ ما يُستعملُ في الشَّرِّ والخطيئةِ، وهو ما يوحي به سياقُ الآيةِ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الجاثية: 21][5].

3) ﴿يَبۡعَثُكُمۡ﴾: يقالُ: بعثَه من منامِه، وبعثَه لِكذا فانْبعثَ له، وفي القرآن: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التوبة: 46]، وبعثَ الشّيءَ: أثارَه[6]، أَصلُ البَعثِ: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُه، يُقالُ: بعثْتُه فانْبعثَ، ويختلفُ البعثُ باختلافِ ما عُلِّقَ به، فَبَعثْتُ البعيرَ: أَثَرْتُه وسَيَّرْتُه، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]؛ أي: يُخرجُهم ويُسيِّرهم إلى القيامةِ، ومن المعنَى الأَوَّل - وهو الإثارةُ لإعادتِهم إلى يَقَظَتِهم - قولُه تعالى في الآية الَّتي معنا: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾، فالنَّومُ من جِنسِ الموتِ، فجعلَ التَّوفّي فيهما، والبعثَ منهما سواءً[7].

4) ﴿لِيُقۡضَىٰٓ﴾: القضاءُ: فَصلُ الأمرِ قولًا كان أو فعلًا، وكلٌّ واحدٍ منهما على وجهَيْن: إلهيٍّ وبشريٍّ، فمِنَ القولِ الإلهيِّ، قولُه تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ أي: أَمَرَ بذلك، ومنَ الفعلِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، ص: 879.

(2) النّسفيّ، طلبة الطّلبة، ص: 54.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرح).

(4) البيتُ غيْر منسوبٍ إلى قائلٍ، وقد ذكره الخليل في كتاب العين: (جرح)، والحربي في غريب الحديث: 3/244.

(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (جرح).

(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بعث).

(7) الرّاغب، المفردات: (بعث).

دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ [غافر: 20]، ومنَ القولِ البشريِّ، نحوَ: قضى الحاكمُ بكذا، فإنَّ حُكمَ الحاكم يكونُ بالقول، ومنَ الفعلِ البشريِّ، قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾ [البقرة: 200][1]، ويُعبَّرُ عنِ الموتِ بالقضاءِ، فيُقالُ: فُلانٌ قَضَى نَحْبَه، كأنَّه فصلَ أمرَه المُختصَّ به في دنياه، ومنه الآيةُ الَّتي معنا في قولِه تعالى: ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ إمّا أجَلُ الحياةِ بالموت، أو أجلُ البَعثِ[2].

5) ﴿يُنَبِّئُكُم﴾: منَ النّبأِ، وهو"خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يحصلُ به علمٌ، أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبرِ في الأصلِ نبأٌ، حتّى يُضمّنَ هذه الأشياءَ الثلاثةَ"[3]، ولفظُ نَبَأَ: النَّون والباء والهَمزة، قياسُه الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان، ومن هذا القياسِ النَّبَأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّه يأتي من مكانٍ إلى مكان. والمُنبىء: المُخبرُ، وأنْبأْتُه ونبَّأْتُه. والنَّبْأةُ: الصَّوتُ، وهذا هو القياسُ؛ لأنَّ الصَّوتَ يَجيءُ من مكانٍ إلى مكانٍ. ومَنْ هَمَزَ النَّبيَّ فلأنَّه أنبأَ عنِ اللهِ تعالى، ويُطلَق النَّبأُ على الخَبرِ العظيم، كما في قولِه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾ [النَّبأ: 1-2]؛ وهو يومُ القيامة[4].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

بيانُ تدبيرِ اللهِ لأحوالِ عبادِه، في النّومِ واليَقَظةِ، والإماتَةِ والبعْثِ

هذا البيانُ الإلهيُّ تقريرٌ لأُلوهيَّةِ اللهِ ﷻ، واحتجاجٌ على المشركين به، وفيه إخبارٌ بأنَّ اللهَ تعالى هو المُتفرِّدُ بتدبيرِ أحوال عبادِه، في يَقظَتِهم ومنامِهم، فهو الَّذي يتوفّاهُم باللَّيل، وفاةً مُؤقَّتةً بالنَّوم، ويعلمُ ما كَسَبوا منَ الأعمال في نهارِهم، بعد أن يبعثَهم فيه من منامِهم؛ ليُمارسوا شؤونَ حياتِهم حتَّى يَستَوفوا آجالَهم إلى أجل

(1) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (قضى).
(2) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(3) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نبأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).

مسمًّى، وهو وقتُ موتِهم، ثمَّ بعثِهم ليومِ القيامةِ؛ ليُخبرَهم بحصيلةِ أعمالِهم، إنْ خيرًا أو شرًّا[1].

الإيضاحُ البلاغيُّ واللُّغويُّ:

دَلالةُ العطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾:

لله في صُنعِه وتقديرِه، ما يدلُّ على حِكمةِ تدبيرِه

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ عطفٌ على قولِه تعالى السّابق: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [آية: 59]، وفي هذا العطفِ انتقالٌ من بيان سَعةِ علمِه تعالى، إلى بيانِ عظيمِ قُدْرته؛ وهذا كُلُّه من دلائلِ وحْدانيَّته تعالى في أُلوهيَّته، وفيه تعليمٌ لأوليائِه، ونَعيٌ على المشركينَ أعدائِه، وهذه عادةُ القرآنِ الكريمِ في ذكر دلائلِ وحْدانيَّته في أَنْفُسِ النّاس عَقِبَ ذكْرِ دلائلِها في الآفاق، كما قالَ تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصّلت: 53]، فجُمِعَ ذلك هنا على وجهٍ بديعٍ مُؤذِنٍ بتعليمِ صفاته في ضمنِ دلائلِ وحْدانيَّتِه؛ وفي هذا تقريبٌ للبعث بعدَ الموت[2].

اللهُ حافِظُ الأنفُسِ ومُدبِّرُ حركةِ الآفاقِ

وفي كلِّ ذلك جمعٌ لمعاني الاستدلال على تفرُّدِ الله بتدبيرِ أحوالِ الأنفُسِ، كما تفرَّدَ بتدبيرِ حركةِ الآفاقِ العجيبةِ في ملكوته الشّاسعِ، بحكمتِه السّاطعةِ، وقوانينِه القاطعةِ، ممّا لا يدَعُ مجالًا للتّشكيكِ، في قُدرةِ المدبّرِ الخبيرِ.

دلالةُ الاسْتعارةِ التّبعيّةِ في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾:

النّوم موْتٌ أصغَرُ، والموتُ أمرٌ مُقدَّرٌ

قولُه تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾؛ أي: يُنيمُكم فيه على سبيل المجاز؛ لِشَبَه النَّوم بالموتِ، وأصلُه قَبضُ الشَّيء بتمامِه[3]، وقد "استُعيرَ التّوفّي منَ الموت للنّوم؛ لما بينهما منَ المشاركة في زوالِ

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 213.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/275.

(3) أبو السّعود، الإرشاد: 2/223.

إحساسِ الحواسِّ الظّاهرةِ والتّمييزِ، قيل: والباطنةُ أيضًا"[1]، والمعنى "يُميتُكم فيه؛ لأنّ النّومَ وفاةٌ، لما بينه وبين الموت منَ المشاكلةِ، في زوال الإحساسِ وغفْلةِ الحواسِّ الظّاهرةِ والباطنةِ"[2]، "فأرادَ بالوفاةِ هنا النّومَ، على التّشبيه، وفائدتُه أنّه تقريبٌ لكيّفيّةِ البعْثِ يومَ القيامة، ولذا استُعيرَ البعثُ للإفاقةِ منَ النّوم؛ ليتمَّ التّقريبُ في قوله: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾[3]، قال شيخُ زادَه في حاشيتِه على البيضاويِّ: "ليس في ابنِ آدمَ إلّا روحٌ واحدةٌ، يكونُ لابنِ آدمَ بحسَبِها ثلاثةُ أحوال: حالُ يقظةٍ، وحالةُ نومٍ، وحالةُ موتٍ، فباعتبارِ تعلُّقِها بظاهرِ الإنسانِ وباطنِه تعلّقًا كاملًا، تثبتُ له حالةُ اليقظةِ، وباعتبارِ تعلُّقِها بظاهرِ الإنسانِ فقط، تثبتُ له حالةُ النّوم، وباعتبارِ انقطاعِ تعلُّقِها عنِ الظّاهرِ والباطنِ، تثبتُ له حالةُ الموت"[4]، ودلالةُ الموت على النّومِ إشارةٌ إلى فقْدِ الوعْي، وعدمِ القُدرةِ على التّحكّم في حركةِ الأعضاءِ ووظائفِ الجسم، وأنّ الله هو الّذي يحفظُه ويَتولّاه، حينما يكونُ نائمًا لا يَستطيعُ حيلةً، ولا يَعي بخطَرٍ مُحْدِقٍ، أو ضررٍ مُطْبِقٍ.

دلالَةُ الباءِ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ على معنى (في) الظّرفيّةِ:

اللّيلُ آيةُ الله في إمسَاكِ الأنفُسِ وإرسَالِها

والباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ بمعنَى (في)، وجازَ ذلك؛ لأنَّ الباءَ للإلصاقِ، والملاصِقُ للزّمانِ والمكانِ حاصلٌ فيهما[5]، وتخصيصُ اللّيل بالنّوم والرّاحةِ، جريًا على المُعتادِ المألوفِ في حياةِ النّاسِ؛ لأنّ الغالبَ أن يكونَ النّومُ ليلًا، واللّيلُ يقابلُ النّهارَ في الذِّكرِ والمهمّةِ، غيرَ أنّ الإنامةَ المعبّرَ عنها بالتّوفّي تكونُ في ظرْفٍ زمانيٍّ معروفٍ ومعهودٍ، وهو اللّيلُ، الّذي هو آيةٌ من آياتِ الله العظيمة.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: 7/174.
(2) عبد القادر بن ملاّ العاني، بيان المعاني: 3/351.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/276.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/308.
(5) العكبريّ، الإملاء: 1/245.

إيثارُ ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ على (لتسكُنُوا)، في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾:

دِقّةُ اختيارِ لفظٍ دونَ سِواه، من بلاغةِ كلامِ الله

المتوفّي هو الله تعالى، وهو سُبحانَه الّذي في مَناطِ قُدرته أن يَتوفَّى العبادَ باللّيلِ، وهو بذلك يُعبِّرُ عن إتاحتِه الفُرصةَ للبشرِ، حتّى ينالوا قِسْطَهم منَ الرّاحةِ والسّكينةِ والاطْمئنانِ، والمرادُ: الإنامةُ، ولم يُعبِّرْ بصيغةِ (تسكنوا)، كما هو واردٌ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: 67]؛ "لأنّ السّياقَ لبيانِ قُدرةِ الله تعالى، وسُلطانِه عليهم، وكونِهم في قبْضةِ يدِه، وأنّه يُحصي عليهم أعمالَهم، فكان التَّعبيرُ بالوفاةِ عنه أنْسبَ، والنّومُ يُعتبرُ من قَبيلِ الوفاة"[1].

دلالةُ أسلُوبِ القصْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم﴾:

النّـومُ تَـزوُّدٌ بـالـعـافـيّـةِ، وتجدُّدٌ بالطّاقةِ الضّافِيةِ

ولّما كان قولُه تعالى السّابقُ: ﴿لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ [الأنعام: 58] موجَّهًا للمُشركين، جاءَ هذا الخطابُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم﴾ بصيغةِ قَصْرٍ لتعريفِ جُزْأَي الجملةِ، بمعنَى: أنّه تعالى هو الّذي يتوفّى الأَنفُسَ دونَ الأصنامِ الّتي تعبدونها، فإنَّها لا تملِكُ موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا[2]، فلا قُدرَةَ لأحدٍ سواه على التّصرُّفِ في الأنفُسِ والأرواحِ؛ لأنّه تعالَى عليمٌ بمقتضياتِ نفْعِها، وعارفٌ بسُبُلِ ضُرِّها، ومن رحمتِه بها، أنّ ذلك النّفعَ والضّررَ مُنحصِرٌ في قُدرتِه وحدَه دونَ سواه، إذْ هو المتلطّفُ بعبادِه، في حالتَي اليقظةِ والنّوم، وما سنَّ لهم ذلك إلّا ليَحميَ الكيانَ الإنسانيَّ، ويضمنَ له التّزوّدَ بالعافيةِ، والتّجدُّدَ بالطّاقةِ الّتي يضمَنُها النّومُ، وتَتأتّى باليقظةِ بعدَه، للضّربِ في الأرضِ، بقوّةٍ أثيرةٍ، وفتوّةٍ جديرةٍ.

المرادُ باللّيلِ والنّهارِ، في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾:

تـقـديرُ الـلـه لا يَحجبُه ليلٌ، ولا يُعجِزُه نهارٌ

المرادُ باللَّيلِ والنَّهارِ هنا الجنسُ المتحقّقُ في كلِّ فردٍ من أفرادِهما؛ إذ بالتَّوفّي والبعثِ الموجودَين فيهما يتحقّقُ قضاءُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2525.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/275.

الأجَلِ المسمَّى المترتِّبِ عليها لا في بعضِها[1]، والأصلُ في ذلك أنّ اللّه تعالى يَمنعُكم التّصرّفَ بالنّوم ليلًا، كما يَمنعُكم بالموتِ أبدًا، والحالُ أنّه يعلمُ ما كسبْتُم بالنّهار الّذي تعقّبَه النّومُ، منَ الذّنوبِ الموجبةِ للإهلاكِ، ويُعاملُكم فيها بالحِلْم بعدَ العلْم، ولا يَعجلُ عليكم[2]، وفي تكامُلِ مهمّةِ اللّيلِ ومهمّةِ النّهار، دليلٌ على عظَمةِ الصّانعِ، وإعجازِ المصنوعِ.

علّةُ تقديمِ اللّيلِ على النّهارِ، في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾:

تعاقبُ اللّيلِ والنّهارِ، يُجدّدانِ الحكمةَ من تقديمِ اللّيلِ

قدّمَ السّياقُ اللّيلَ على النّهار، في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، ذلك أنّ مَناطَ الاستدلالِ في الآيةِ هو المشابهةُ بين النّومِ والموتِ، وبينَ اليقظةِ والبعثِ، وهما ظاهرتانِ متلازمتانِ، إلّا أنّ الأصلَ أن يكونَ البعثُ بالاستيقاظ مُتأخّرًا عنِ النّومِ، فكان السّياقُ يقتضي أن يتقدّمَ اللّيلُ، وهو ظرْفُ النّومِ، على النّهارِ الّذي هو رمزُ الحركةِ والدّأبِ، والضّربِ في الأرض، والابتغاءِ من فضلِ اللّه؛ ويُؤيّدُه بنفْسِ التّرتيبِ السّياقيِّ، قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١﴾ [النّبأ: 10 - 11].

دلالةُ تخصيصِ التَّوفِّي باللَّيلِ، والجرْحِ بالنَّهارِ:

وضْعُ الشّيءِ في مَوضِعِه حِكمةٌ بالغةٌ، وبلاغةٌ راقيةٌ

جاءَ تخصيصُ التَّوفّي باللّيلِ والجرحِ بالنّهارِ - مع تحقُّقِ كُلٍّ منهما فيما خُصَّ بالآخر - للجَرْيِ على سَنَنِ العادة[3]، في التّعبيرِ عنِ المعاني المتلازمةِ، بحُكم اتّصالِ بعضِها ببعضٍ في الواقعِ، فاتّصلَ بعضُها ببعضٍ في الاستعمالِ السّياقيِّ، بغايةِ إيضاحِ المُرادِ، والتّعبيرِ عنِ الصّورةِ المُنتقاةِ للدّلالةِ على المقصَدِ من إيرادِها.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/177.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/138.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/223.

دلالةُ تقديمِ ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، على قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾:

هناك إشكالٌ في هذه الآية، إذْ قولُه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، كان ينبغي أن يكونَ بعد قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾؛ لأنّ البعْثَ في النّهارِ مُقدّمٌ على الكسْبِ فيه، بل على تعلُّقِ العلْمِ بالكسْبِ، قال النّيسابوريّ: "ويُمكنُ أن يُجابَ بأنّ المرادَ: (ويعلَمُ ما جَرحتُم في النّهارِ الماضي)، بدليلِ قولِه ﴿جَرَحۡتُم﴾ دون (تجرحون)، ثمّ يَبعثُكم في النّهارِ الآتي، والغرَضُ: بيانُ إحاطةِ علمِه وقُدرتِه بالزّمانَيْن المحيطَيْن باللّيل"[1]، وقد عدلَ صاحبُ الكشّافِ عن هذا التّفسيرِ إلى أنّ الخطابَ للكفرةِ، وهو خلافُ جمهورِ المفسِّرين، فقال: "أي: أنتم مُنسدِحون[2] اللّيلَ كالجيفِ، والانْسِداحُ: الانبطاحُ أو الاستلْقاءُ، و﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ما كسبْتُم منَ الآثام فيه، ثُمَّ يَبعَثُكُمْ منَ القبورِ، في شأْنِ ذلك الّذي قطعْتُم به أعمارَكم منَ النّوم باللّيلِ، وكسْبِ الآثام في النّهارِ"[3]. قال القُمّيُّ: "والأصْوبُ عندي أن يُقالَ: الخطابُ عامٌّ، وكذا الكسْبُ في النّهارِ، فينبغي أن لا يقيَّدَ بالآثامِ، أمّا الضّميرُ في (فيه) فيكونُ جاريًا مَجرَى اسمِ الإشارةِ إلى الكسْبِ، والبعْثُ: هو البعْثُ منَ القبورِ"[4].

تعميمُ الخطابِ أرجَحُ، في إفادةِ إحاطةِ الله بأحوالِ المؤمنِ والكافرِ

ملمحُ التّنزيلِ المنظومِ، في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾:

في هذه الآيةِ يُلمحُ ما يُسمّى عند البلاغيّين بالتّنزيلِ المنظوم، وهو ما وردَ في القرآن موزونًا، بغيرِ قصْدِ الشّعرِ، إذْ إنّه لا يكتسِبُ اسْمَ الشّعرِ، ولا يوصفُ بأنّه شِعرٌ، مثالُه من هذه الآية، في قولِه

ليسَ القرآنُ شِعرًا فيُنظَمُ، ولا سَجْعًا فيُلزمُ

(1) القمّيّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/91.

(2) (منسدحون): أي: منسطحون على القفا، أو منقلبون على الوجه، قال في الصّحاح: "السّدح: الصّرع بطحًا على الوجه، أو إلقاءً على الظّهر، لا يقع قاعدًا ولا متكوّرًا"، الجوهريّ، الصّحاح: (سدح).

(3) الجوهريّ، الصّحاح: 3/91، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/31، وما بعدها.

(4) القمّيّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/91.

تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، فهي جملةٌ على شاكلةِ شَطرِ بيتٍ منَ البحرِ الوافرِ، وقد وُجدتْ مثيلاتٌ لها في القرآن الكريم، كقولِه تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: 37] منَ الوافرِ، وقولِه تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾ [النّساء: 78] منَ الخفيفِ، وهكذا دوالَيْكَ، ونلاحظُ أنّ الإيقاعَ المُنسجِمَ مع الدّلالةِ، يُعطي موسيقَى داخليّةً، لا تُشبهُ الشّعرَ بنظْمِه، ولا تعكسُ النّثرَ بسجْعِه، ولكنّها ترانيمُ القرآن، بما فيه من روعةٍ، وما يتميّزُ به من بلاغةٍ، وما يكتنزُه من سَلاسةٍ وجماليّةٍ وعُذوبةٍ، تأسِرُ التّاليَ، وتَجذبُ القاريَ، وتأخذُ بمجامعِ النّفوس، ومعاقدِ القلوب، وتؤكّدُ ما ذكره الوليدُ بنُ المغيرةِ: "واللهِ إنّ لِقَولِه لحلاوةً، وإنّ عليه لَطلاوةً، وإنّه لمنيرٌ أعلاه، مُشرقٌ أسفلُه، وإنّه ليعلو وما يُعلَى، وإنّه لَيحطِّمُ ما تحته"[1].

دلالةُ الجملةِ الاعتراضيّة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾:

لُطْفُ اللهِ يَستغرِقُ الزّمانَ برُمّتِه

و"جملةُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ مُعترِضةٌ لقصدِ الامتنانِ بنعمةِ الإمهال؛ أي: ولولا فضلُه تعالى عليكم لَما بعثَكم في النّهارِ مع علْمِه بأنّكم تكتَسبونَ في النّهار عبادةَ غيرِه، ويَكتسِبُ بعضُكم بعضَ ما نهاهُم عنه كالمؤمنين"[2]، وأشار أبو السّعودِ إلى أنّ توسيطَ قولِه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ بينَهما؛ لبيانِ ما في بعْثِهم من عظيمِ الإحسانِ إليهم، بالتّنبيهِ على أنّ ما يكتسبونَه منَ السّيِّئاتِ، مع كونِها موجبةً لإبقائِهم على التّوفّي؛ بل لإهلاكِهم بالمرّةِ، يُفيضُ عليهم الحياةَ ويُمهلُهم، كما تُنبئُ عنه كلمةُ التّراخي؛ كأنّه قيل: هو الّذي يتوفّاكم في جنْسِ اللّيالي، ثمّ يبعثُكم في جنْسِ النّهار مع علْمِه بما ستَجرَحونَ فيها[3].

(1) السّيوطيّ، لباب النّقول، ص: 206.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/276.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/44.

ويُفهمُ منَ الآية أنّ المعنى مُفادُه أنّه: "يوقظُكم بالنّهار، ويعلمُ ما كسبتُم فيه، حتّى ينتهيَ أجلُ كلٍّ منكم في الدّنيا بموتِه، ثمّ يومَ القيامة تَرجعون جميعًا إلى الله - وحده - يُخبرُكم بأعمالِكم في الدّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، ويُجازيكُم عليها"[1].

وقد أضافتِ الجملةُ المُعترِضةُ ما هو ضروريٌّ لاستكمالِ الدّلالةِ، بما يقعُ في النّهارِ، مُقابلًا لما يحصلُ باللّيل، وهو ممّا تَفرضُه طبيعةُ العِصيانِ في الإنسانِ، فيقعُ الاجتراحُ بالنّهارِ، والله يحفظُ البشرَ، ويَحميهم، ويُمهلُهم في الحالَتَيْن؛ تلطُّفًا منه ورحمةً.

الاقتصار على العلم بكسب النّهار:

الزّمانُ ظرفٌ للطّاعةِ والعصيانِ، وملمحٌ لامتحانِ الإنسانِ

في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾: اقتصرَ بيانُ اللهِ على الإخبارِ بعلْمِه تعالى لِما يَكسِبُ النّاسُ في النَّهارِ دون اللَّيلِ - مع علمِه سُبحانه بما يقعُ منهم بكليهما - رَعْيًا للغالبِ؛ لأنَّ النَّهارَ هو وقتُ أكثرِ العملِ والاكتسابِ، ففي الإخبارِ أنَّه يعلمُ ما يقعُ فيه تحذيرٌ مِن اكتسابِ ما لا يَرضَى اللهُ باكتسابِه، بالنِّسبةِ للمؤمنين، وتهديدٌ للمشركين[2]، وهو سُبحانَه قهّارٌ لكلِّ ضدٍّ بضدِّه، فيقهرُ النّورَ بالظُّلمةِ، والظُّلمةَ بالنّور، والنّهارَ باللّيل، واللّيلَ بالنّهار، وتمامُ تقريرِه في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: 26][3].

دلالةُ عطْفِ جملةُ: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾:

البعثُ منَ السُّباتِ، كالبعْثِ منَ المماتِ

جملةُ: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ معطوفةٌ على جُملة: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ فتكونُ ﴿ثُمَّ﴾ للمُهلةِ الحقيقيَّةِ، ويُمكنُ أن تكونَ ﴿ثُمَّ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/276.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/276.

(3) طنطاويّ، الوسيط: 5/95.

للتَّرتيبِ الرُّتَبيّ، فتُعطفَ على جُملة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾؛ أي: وهو يعلمُ ما تكتسبونَ منَ المَناهي، ثمَّ يَرُدُّكم ويُمهلُكم، وهذا المعنَى أنسبُ بفريقِ المشركين[1].

وجُمّاعُ معنى الجُملتين مُفادُه قولُه: "ثمّ يعيد أرواحكم إلى أجسامكم باليقظة منَ النّوم نهارًا، بما يُشبهُ الإحياءَ بعد الموتِ؛ لتُقضَى آجالُكم المحدّدةُ في الدّنيا، ثمّ إلى الله تعالى مَعادُكم بعْدَ بعثِكم من قبورِكم أحياءً، ثمّ يُخبركم بما كنتم تعملون في حياتِكم الدّنيا، ثمّ يُجازيكُم بذلك"[2].

أثرُ الاستعارةِ المُرشَّحةِ في تجْليةِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾:

تعاقبُ اللّيلِ والنّهارِ، هو أجَلُ الله الّذي لا يعلمُه سِواه

والبَعثُ مُستعارٌ للإفاقةِ منَ النَّوم؛ لأنَّ البعْثَ شاعَ في إحياءِ الميِّت، وخاصَّةً في اصطلاح القرآنِ، كما قالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢﴾ [المؤمنون: 82]، وحَسَّنَ هذه الاستعارةَ كونُها مبنيَّةً على استعارةِ التَّوفّي للنَّوم، تقريبًا لكيفيَّةِ البعثِ الَّتي حارتْ فيها عقولُهم، فكلٌّ منَ الاستعارتَين مُرشِّحٌ للأُخرى، "أُطلقَ البعثُ ترشيحًا للتّوفّي؛ لأنّه من خواصّ المشبّه به، فتكونُ الاستعارةُ ترشيحيّةً، ولا يَضرُّه كونُه بمعنى الإيقاظِ؛ لأنّ التّرشيحَ يجوزُ أن يكونَ باقيًا على حقيقتِه، وأن يكونَ مُستعارَ الملائم المشبَّه؛ فكونُه ترشيحًا باعتبارِ كونِه لفظًا موضوعًا للمشبَّه به، صرّح به القاسمُ اللّيثيُّ في رسالته"[3]، ويُقالُ: "إنّ تداوُلَ اللّيل والنّهار مستمرٌّ؛ فليلٌ يعقبُه نهارٌ، ونهارٌ يعقبُه ليلٌ لنهايةٍ واحدةٍ، وهو قضاءُ أجَلٍ مُسمًّى عند الله تعالى، وإن كان لا يعلَمُه إلّا الله تعالى"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/276.

(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 135.

(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 135.

(4) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 8/135.

أثرُ لامِ التَّعليلِ في بيانِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾:

لكُلِّ أجلٍ كتابٌ، ولا رادَّ لقضائِه سبحانه في خلْقِه ولا مُلْكِه

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ لامُ التَّعليل؛ "لأنَّ منَ الحِكَمِ والعِلَلِ الَّتي جعلَ اللّهُ لها نظامَ اليَقَظةِ والنَّوم، أن يكونَ ذلكَ تَجزئةً لعُمُرِ الحيِّ، وهو أجلُه الَّذي أُجِّلتْ إليه حَياتُه يومَ خَلقِه، كما جاء في الحديث: «يُؤمرُ بكَتْبِ رزقِه وأجَلِه وعمَلِه»[1]، والعِلَّةُ الَّتي بمعنَى الحكمةِ لا يلزمُ اتِّحادُها فقد يكونُ لفعلِ اللّهِ حِكَمٌ عديدةٌ، فلا إشكالَ في جعل اللّامِ هنا للتَّعليل، و"القَضاءُ: هو فصْلُ الحُكمِ على التَّمامِ، ومَعناهُ هاهُنا: استيفاءُ أجَلِ العُمرِ على التَّمام"[2]، والمرادُ بالأجَلِ آجالُ بني آدمَ، ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ يريدُ: بالبعثِ والنُّشورِ، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: يُعلمُكم إعلامَ توقيفٍ ومحاسبةٍ[3]، ولامُ التّعليلِ ذاتُ أثرٍ في بيان أنّ ما مضَى من وعودٍ ودلالاتٍ على قُدرةِ اللّه، أنّ غايتَه التّعليليّةَ إنّما هي تنفيذُ أجَلِ اللّه المقيَّدِ في القَدرِ المرسومِ بإرادةِ اللّه وحُكمِه، فلا بدَّ أن يُقضَى الأجلُ المسمَّى، ولا رادَّ لحُكمِه، ولا مُعقّبَ لكلماتِه، وقولُه تعالى: ﴿مُّسَمّٗى﴾؛ أي: هو مُعيَّنٌ مُحدَّدٌ لكلِّ فردٍ، بحيث لا يكادُ يتخطَّى أحدٌ ما عُيِّنَ له طَرفةَ عَين.

دلالةُ الحصْرِ بتقديمِ المسنَدِ ﴿إِلَيۡهِ﴾:

حقيقةُ الرّجوعِ إلى الله، إمّا بالموتِ وإمّا بالنُّشورِ

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾: تقديمُ المسنَدِ شبْهِ الجملة ﴿إِلَيۡهِ﴾، على المسنَدِ إليه ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾، يدلُّ على أنّ الرّجوعَ في الآخرةِ إلى اللّهِ وحدَه دون سواه، وذلك ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ [العلق: 8]، وقولُه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾ [العنكبوت: 57]، ثمّ إنّ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ يمكنُ أن يكونَ المرادُ بالرُّجوعِ الموتَ، حيثُ تَصيرُ الأرواحُ في قبضتِه

(1) شرح النّوويّ على مسلم، (كتاب القدر): 16/144.
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/111.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/300.

ﷺ، ويمكنُ أن يكونَ المرادُ بالرُّجوعِ الحشرَ يومَ القيامة، وكِلاهما رجوعٌ إلى اللهِ ﷻ[1]، والمعنى: "استكمالُ العُمرِ وانقضاءُ الأجلِ بالموتِ، ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ يعني: بالبعْثِ والنّشورِ في القيامة"[2].

دلالةُ (ثمّ) على المُهلةِ، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾:

الإنـبـاءُ بالأعمالِ، يكونُ بـعْـدَ اسـتِـيفـاءِ الآجالِ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّمهيليَّةُ؛ أي: يُحاسبُكم على أعمالِكم بعدَ الموت، أو بعدَ الحَشرِ، فأفادتْ ﴿ثُمَّ﴾ وجودَ مُهلةٍ بين الحَشرِ وبين ابتداءِ الحسابِ زمنًا، اللهُ أعلمُ بمُدَّته، وذلك التّنقّلُ من حالِ الوفاةِ إلى حالِ البعثِ، ثمّ الرّجعةِ إلى الله تعالى؛ لأجْلِ أن يقضيَ كلُّ فردٍ أجلَه المسمَّى في علْمِ الله تعالى، والمقدّرَ له في هذه الدّنيا، فقد جعل سُبحانه لأعمارِكم آجالًا محدّدةً لا بدَّ من قضائِها وإتمامِها، وجملةُ: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ معطوفةٌ على ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾، فتكونُ ﴿ثُمَّ﴾ للمُهلةِ الحقيقيّةِ، وهو الأظهرُ.

ذِكْرُ بعضِ عناصرِ الحدَثِ للكنايةِ عنِ الكُلِّ، في آخرِ الآيةِ:

عـدْلُ الـلـه في فـحْواه أن يُنبَّأَ الإنـسـانُ بـما قدّمتْ يدَاه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إشارةٌ إلى ما سوفَ يقعُ في موقفِ الحشْرِ الأكبَرِ يومَ القيامة، "يُقيمُ لكلِّ واحدٍ منكم في محكمتِه حسابَه، وفصْلَ القضاءِ بشأنِه؛ ليكونَ جزاؤُه بعد ذلك بالعدْلِ أو بالفضْلِ، على وفْقِ قضائِه ﷻ".

جاء التّعبيرُ عنِ الحساب، وفصْلِ القضاء، بذِكْرِ بعضِ مُجرياتِ يوم الحساب، وهو إخبارُ كلِّ واحدٍ منَ العباد بما كان يعملُ، في رحلةِ امتحانِه في الحياة الدّنيا، وهذا منَ الكناياتِ الّتي تكرّرتْ نظائرُها في القرآن المجيدِ، إذ يذكرُ بعضَ أجزاء الحدَث؛ ليدلَّ على سائرِه.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2526.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/123.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التوفّي والموت:

يقالُ: "توفّاه اللّه ﷻ: إذا قبضَ نفْسَه؛ وفي الصّحاح: روحَه، وقال غيرُه: "توفّي الميتِ استيفاءُ مدّتِه الّتي وُفيتْ له، وعددِ أيّامِه، وشهورِه، وأعوامِه في الدّنيا؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزّمر: 42]؛ أي: يستوفي مُددَ آجالِهم في الدّنيا"، والتَّوفيةُ للشَّيء: بذلُه وافيًا[1]، وأمّا الموتُ فعَرَضٌ يُضادُّ الحياةَ، ولا يكونُ إلّا من فعْلِ اللّه، وهو يَنفي الحياةَ مع سلامةِ البِنْيةِ[2]، والتّوفّي باللَّيل وهو النَّومُ، موتٌ مُؤَقَّتٌ، تعقُبُه الحياةُ، وليس موتًا دائمًا، وانتقالًا من حياةٍ فانيةٍ إلى حياةٍ دائمةٍ، ولذلك جاءَ التَّعبيرُ بالفعْلِ (يتوفّاكم) مُسنَدًا إلى زمنٍ مؤقَّتٍ، وهو اللَّيلُ، فهو استيفاءٌ بقَدرٍ محدَّدٍ لا مُطْلقٍ، فأوثر اصطفاءُ التّوفّي على الإماتة هنا؛ لكونِ الأوّلِ انقطاعًا مؤقّتًا عنِ الحياة وكون الثاني انقطاعًا نهائيًّا عنِ الحياة، وهو مايأباه السّياقُ.

التّـوفّي ينطبقُ على الموتِ وعلى النّومِ

الجَرْح والكسبُ:

الجُرحُ والاجتراحُ يُفيدانِ معنَى الكَسْبِ والعملِ بالجوارح[3]، و"في الأساسِ: وبئسما جرحتْ يداك، واجترحَت؛ أي: عملَتا وأثّرتا، وهو مستعارٌ من تأثير الجارحِ، وفي العناية للخفاجيّ أنّه صار استعارةً حقيقةً فيه"[4]، أمّا الكَسبُ فلا يفيدُ هذا المعنَى من جهة اللَّفظ[5]، فالكسبُ: طلبُ الرّزق، وأصلُه الجمْعُ، تقول منه: كسبتُ شيئًا واكتسبتُه، بمعنًى واحد، وفلانٌ طيّبُ الكسب[6]، حلالُه ونقيُّه، ولذلك وردَ تعبيرُ البيانِ الإلهيِّ بالفعلِ ﴿جَرَحۡتُم﴾ دون (كَسَبتُم).

الاجْتراحُ يَصدُقُ على مُباشرةِ عملٍ مكروهٍ، وهو موضعُ التّهديدِ

(1) الرّاغب، المفردات: (وفى).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 420.
(3) الحربيّ، غريب الحديث: 1/244.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جرح).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 160.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (كسب).

وبذا يتبيّنُ أنّ الكسبَ أعمُّ منَ الجرحِ، فاصطفَى الجرحَ في هذا المَوضِعِ الوحيدِ، وفي مقابلِه استخدمَ (كسبَ) في سبعةٍ وخمسين مَوضِعًا، ولعلّ استخدامَ (جرح) ملائمٌ للظّرفِ الواقعِ فيه، وهو النّهارُ تشنيعًا للمجاهرةِ بالمعصيّةِ الّتي تُشبهُ الجرحَ لما في ذلك من هتْكِ السّترِ، وإبرازِ الفجورِ؛ وفيه منَ التّهديدِ للمُجاهرين ما فيه.

البَعث والتَّسْيير:

البعثُ إثـارَةُ الهمّةِ لمتابعةِ الحياةِ الدُّنيا

البعثُ: فيه إثارةُ الشَّيءِ، وتوجيهُه لوجهةٍ محدّدةٍ، وأمّا التَّسييرُ ففيه حركةٌ دون تقييدٍ بقصْدٍ، فليس فيه معنَى البعثِ، والبعثُ منَ النَّومِ للحياةِ: هو إخراجٌ من حالةِ النَّومِ إلى حالةِ الحياة مرَّةً أخرى، ولذلك استخدمَ البيانُ الإلهيُّ الفعلَ (يبعثُكم)، دون (يُسيِّركم)؛ لأنَّ في البعثِ إثارةً مع تَسْييرٍ بقُدرةِ اللهِ تعالى إلى وُجْهةٍ، والنَّومُ من جِنسِ الموتِ، فكما أنَّ البعثَ مِنَ الموتِ فيه إخراجٌ منَ القبورِ، وتَسْييرٌ إلى يوم القيامة، فكذلك البعثُ منَ النّوم فيه إخراجٌ منَ النَّومِ، وتَسييرٌ إلى متابعةِ الحياةِ الدُّنيا؛ ففي البعثِ تَسْييرٌ يسبقُه إخراجٌ، وإثارةٌ لمقصودٍ.

النّبأ والخبر:

هَولُ الحسابِ يومَ النّشورِ نَبَؤُه عظيمٌ

النَّبَأُ: الخَبَرُ الَّذي له شأنٌ عظيمٌ[1]، ومنه قولُه سُبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2][2]، وأمّا الخَبَرُ فهو العِلمُ بالأشياءِ المعلومةِ من جهة الخَبَر، وخَبَرْتُه خُبْرًا وخِبرةً، وأَخْبرتُ فُلانًا: أعلمتُه بما حصلَ لي منَ الأخبارِ والأحوالِ[3]، فاستخدامُ الفعلِ (يُنبِّئُكم) هنا أَوْلى من (يُخبركم)، لأمرَينِ: أوّلهما: تعليقُ

(1) أبو البقاء الكفوي، الكلّيّات: 2/279.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 529.
(3) الرّاغب، المفردات: (خبر).

المصيرِ على العملِ، وهو أمرٌ ذو خطَرٍ، وثانيهما: إيقاظٌ للهِمَم؛ ليجدَّ أصحابُها بأقوالِهم وأعمالِهم للفوزِ بالمصيرِ السَّعيدِ، وفيه كذلك تحذيرٌ لِمَن تنكَّبَ طريقَ الحقِّ، وسَدَرَ في غَيِّه، ليعودَ إلى رُشْدِهِ ويُصحِّحَ مسارَه بما يُرضي ربَّه ﷻ.